شعر الحداثة

١. مصطلح الحداثة:

إنّ مصطلح الحداثة يشكّل قضيةً إشكالية، إذ كَثُر فيها الجدل، وتداخلت فيها الأيديولوجيات، وما يزال الاختلاف في تحديد مصطلح الحداثة قائماً.

وبذلك يمكننا أن نضع عدداً من النقاط يمكن الاستناد إليها بوصفها توصيفاً للحداثة:

١. الحداثة من الفعل حدَثَ، نقيض قَدُمَ في المعنى، وكلمة حداثة هي مصدر الفعل، أمّا كلمة حديث فهي الصفة المشبهة المشتقة من الفعل حدث، والحديث هو المتصف بالحداثة.
٢. الحداثة لها عدّة معانٍ:
   أ. معنى عام: دخول الفرد أو في المجتمع العصر الحديث.
   ب. معنى خاصّ: سمات تتسم بها الفنون، وتقتصر على ما ظهر في القرن العشرين.
٣. إنّ الحداثة والحداثوية مولّدتان من كلمة حديث، وهما مترادفتان أحياناً، وتتناقضان مع القدم والكلاسيكية والتقليدية، وهما متعدّدتا المعاني والدلالات حسب آراء عدد من المبدعين منهم بلزاك ١٧٩٩-١٨٥٠م، وبودلير ١٨٢١-١٨٦٧م.
٤. الحداثة مصطلحٌ بالغ العراقة والجدّة، لأنّه يشير تراثياً إلى الصراع بين القدماء والمحدثين، عندما كان المحدث قرين البدعة. وهو يشير إلى صراعٍ جديد، ومعاصر، بين قدماء ومحدثين، حول المتغيرات الجذرية التي وقعت –ولا زالت تقع– في القصيدة العربية المعاصرة، منذ أعقاب الحرب العالمية الثانية.
٥. الحداثة تجربة مستمرّة ومغامرة في الشّكل لا تنتهي.

٦. الحداثة بحثٌ دائبٌ لإيجاد معنى الحياة. موضوعها المشاعر الغامضة التي لم تتجسّد في فكرةٍ محدّدة، رايتها الرفض، والتمزّق، والمأساة، ورفض الأشكال الأدبية المتعارف عليها، ورفض الواقع وقيمه السائدة، ورفض التسلسل والوضوح، وقد تلجأ إلى الغموض والإدهاش والغرابة والهلوسة والأحلام، فهي تفجّر اللغة، وتتجلى في قصيدة التفعيلة وهو (الشعر الحرّ) وقصيدة النثر.

٧. إذاً إنّ دلالة مركزية المصطلح: (حديث / حداثة) تشير إلى الابتداء، والخرق، والانتهاك، وعنف الخروج على ما هو متعارف عليه.

٨. يقول جابر عصفور عن الحداثة: ((الحداثة في الشعر ليست مجرّد مغايرة في بعض العناصر الشكلية، أو المضمونية، بل هي مغايرة شاملة تجاوز بعضية العناصر على كلية العلاقات التي تحتويها، فتصبح إحداثاً شاملاً، ينطوي على (رؤيا للعالم) جذرية، يصوغها المشروع المحدث حلًّا لمأزقٍ تاريخي معين، ينسرب في مستوياتٍ متعدّدة متباينة)).

٩. وفي رأي أدونيس التي وصفها: ((لحظة التوتّر أي التناقض والتصادم بين البُنى السائدة في المجتمع)).

١٠. وأخيراً للحداثة معنيان: معنى زمني ويُقصد به العصر الذي نعيش فيه، وفنّي يُقصد به مجموعة السمات والخصائص في شكل الفن ومحتواه، إذا توفّرت في عملٍ فنّي عُدّ حديثاً.

٢. نشأة الحداثة:

أ. نشأة الحداثة في الغرب:

- جاءت الحداثة نتيجة التحول من الإقطاع إلى البرجوازية فالرأسمالية والاشتراكية، ومن التقدّم الصناعي إلى التقدّم التقاني.
- اخُتِلفَ في تحديد بدايتها، فإمّا أنّها بدأت منذ عصر النهضة وحركات الإصلاح الديني والثورة الصناعية، وانفصال الدين عن الفن.

وإمّا أنها بدأت منذ عهد الثورة الصناعية الثانية، وانطلاق أوّل قمر صناعي، والثورة الروسية ١٩١٧م.

- بدأت بوادر الحداثة مع نهاية الرومانسية، وبدايات الرّمزية في الشعر الفرنسي. وبودلير أول من استعمل مصطلح الحداثة، وترتبط عنده بالأبدي والفن، وهي ثورة على نظرية المحاكاة. ودعم أركانها رامبو.
- ظهرت السريالية والتي هي: ((آلية نفسية فيها رفض المنطق المألوف، ورفض الاهتمام الجمالي، ورفض الاهتمام الأخلاقي، وإملاء الفكر من دون رقابة عقلية)).

ب. نشأة الحداثة العربية:

❖ **ظهورها:**

- ظهرت الحداثة بسبب عوامل:
  - ✓ تحوّل المجتمع الأوربي.
  - ✓ قرب الوطن العربي من المركز العلمي ثانياً وأهميته.
  - ✓ التهافت على منجزات الحداثة.

ولكن الحداثة في الوطن العربي جاءت مستهلكة.

- والحداثة ليست مدرسة أو مذهباً أدبياً، هي فنٌّ مديني، وصفة لازمت القرن العشرين.
- وقد ذهب يوسف الخال إلى أنّ: ((الحداثة ليست مذهباً أدبياً، هي حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم، وهي ليست زيّاً أو شكلاً خارجياً، هي نتاج عقلية حديثة تبدلت نظرتها إلى الأشياء تبدّلاً جذرياً)).
- وهي في رأي أدونيس: رؤيا جديدة، رؤيا تساؤل واحتجاج، وهي التغاير: الخروج من النمطية. وهي مناخ عالمي.

❖ **اختلاط الحداثة العربية بمفهومي المعاصرة والتجديد:**

أولاً- المعاصرة:

- يختلط مفهوم الحداثة بمفهوم المعاصرة، فالعصر لغةً، مرحلة زمنية منسوبة إلى حكم رجل أو دولة (العصر الجاهلي).. وتعني المعاصرة التزامن.

وهي أحد شروط الحداثة، ولكنها لا تتطابق والحداثة، ولا سيّما إذا كان المعاصر القصد منه المدلول التقني، حينها نقول: المعاصر حداثي.

- ذهب عز الدين إسماعيل إلى أنّ المعاصرة هي الارتباط بأحداث العصر وقضاياه وأنّ شعرنا عصريٌّ لأنّه يعبّر عن عصرنا بكل أبعاده الحضارية.
- والمعاصرة مختلفة زمانياً ومكانياً (الحداثة الفرنسية / الحداثة العربية).
- وبهذا:

((تعني المعاصرة الصدق في تعبير الشاعر عن عصره وزمانه وذوقه واستفادته من معطيات الواقع، ولذلك تكون المعاصرة أشمل من الحداثة لأنّها لا تقتصر على زمنٍ دون آخر، في حين تقتصر الحداثة على زمنٍ معين. والشعر الحديث معاصر بالضرورة، ولكن ليس الشعر المعاصر كله حداثياً)).

ثانياً – التجديد:

- يختلط أيضاً مفهوم الحداثة بمفهوم التجديد، ((فالتجديد إصلاح وتحسين، وجدّد الشيء، جعله جديداً، وهو يقدّم إضافةً إبداعية، ولكنه ينطلق من صورةٍ مألوفة، فهو إصلاحي)).
- والتجديد جزئي: مثلاً:
  - ✓ الرصافي مجدّدٌ في عصره.
  - ✓ مطران مجدّدٌ في عصره.
  - ✓ الرّمزية، السريالية، وامتدادات الرومانسية.
- أمّا الحداثة فهي حركة تجديدية شاملة، والمُحدث لغةً، هو ما لم يكن معروفاً وهو نقيض القديم، وقد يكون التجديد، في بعض صوره تمهيداً للحداثة، ولكنه ليس الحداثة نفسها.
- والتجدد هو أحد شروط الحداثة، فهو مرتبطٌ بالبيئة، ولكن الحداثة عالمية، والتجديد له ملامح قديمة مثل: (المرأة في النص الكلاسي، والحب في النصّ الرومانسي)

❖ **الحداثة والأصالة والتراث:**

- الأصالة هي الارتباط بالأصل. واصطلاحاً لها معنيان: الصدق في الأفكار والعواطف الصادرة عن صاحبها، والجدّة أو الابتداع وهو امتياز الشيء أو الشخص من غيره بصفاتٍ جديدة صادرة عنه.

فالأصالة في الإنسان إبداعه، وفي الرأي جودته، وفي الأسلوب ابتكاره، وفي النسب عراقته.

والأصالة عند أدونيس: مغايرة للقديم، لا تتجه نحو الماضي بل المستقبل.

- أمّا التراث: فهو المكتوب والمحفوظ في الكلام والطبيعة، في العادات والتقاليد، في التاريخ واللسان، في الجسد والروح، وهو مصطلحٌ إشكالي. وهو ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد، وعادات، وتجارب، وخبرات، وفنون، وعلوم....
- والعلاقة بين الأصالة والتراث جدلية تصاعدية، فروح التراث تتجلى فيما وراء الألفاظ والصور، وما يبثّه النصّ من تلميحاتٍ وتناصّ.
- أمّا العلاقة بين الحداثة والتراث في الغرب تفاعلية.
- والحداثة لا تنقطع عن التراث.

٣. إرهاصات الحداثة العربية:

- يمكننا إجمال الإرهاصات منذ بداية الحملة الفرنسية على مصر.
- بعد ذلك ظهرت إلى الوجود الرومانسيّة وحملت الحداثة عند عددٍ من شعرائها والتي تجلّت في الثورة على الوزن والقافية، وكتابة الشعر المنثور، وأوّل من كتبه أمين الريحاني متأثّراً بالشاعر الأمريكي والت وايتمان. وكذلك شاعرية جبران وجماعة أبولو.
- وتخلّت في الثورة عن الأغراض الشعرية القديمة، ودعت إلى بناء القصيدة ووحدتها، والإبداع في طرائق تعبير جديدة والخروج من الغنائي إلى القصصي، ومن السطرين إلى التفعيلة.
- **أمّا منطلقات الحداثة وخصائصها فتتجلى في الشعر:**

١. تمثّل الشاعر لروح عصره.

٢. تفهّم العلاقة مع التراث.

٣. الانفتاح على النظريات الجمالية والفنية.

٤. رفض التجريد والتقرير والمباشرة الخطابيّة.

٥. النزعة الدرامية ودخول تقنيات السرد، وخلق الشخصيات الدرامية.

٦. التجربة والرّمز واللغة الموحية والرؤيا، وحلول شعر التجربة (الذاتي) محل الموضوعي.

٧. خلق قرانات جديدة في اللغة حسب السياق الجديد، فتوحي الكلمة بدلالاتٍ متعدّدة (مثل نهر الرماد) لخليل حاوي.

٨. مهمّة الشاعر الحديث المغامرة في الاكتشاف بين معاني الكلمات.

٩. التحديث الموسيقي في الخروج من دائرة البيت الكلاسيكي القائم على شطرين، وإتاحة الحرية للشاعر ليعبّر عن تجربته الشعورية والشعرية.

١٠. الرّمز والأسطورة.

الموضوعات: (الحب، المرأة، المدينة، .....)

٤. ولادة الشعر الحرّ - التفعيلة:

- وُلد الشعر الحرّ في عام ١٩٤٧، وينسب النقاد ولادته إلى شاعرين وهما نازك الملائكة في قصيدتها (الكوليرا) وبدر شاكر السياب في قصيدته (هل كان حبّاً) وكلاهما صرّح بالتأثر بالشعر الإنكليزي.
- ثمّ ظهرت قصيدة (سوق القرية) للبياتي ١٩٥٤. وهذه الولادة شكلت المرحلة الشعرية الأولى في العراق وكان الشعراء رواداً لهذا النوع الشعري.
- بعد ذلك نشر أدونيس قصيدته (الفراغ) متأثّراً بالأرض الخراب لإليوت.

- **وإذا أردنا أن نتتبع تاريخياً شعر الحداثة العربيّة فعلى الشكل الآتي:**
  - في سورية كان التعلّق شديداً بالشعر الكلاسيكي، وازدهار الرومانسية، في مناخ سياسي مشحون، فكان عائقاً أمام التجديد، فيما عدا الماغوط، وشوقي بغدادي اللذين اتبعا أدونيس.

    أمّا نزار قباني فقد شكل مرحلة مهمّة من التطوّر التعبيري.
  - في الأردن وفلسطين ظهرت فدوى طوقان، ويوسف الخطيب.
  - جبرا إبراهيم جَبرا (النثر الشعري) في لبنان.
  - في مصر والسودان: برز صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، ومحمد الفيتوري، ومحيي الدين فارس، وقد استطاعوا فرض أنفسهم على ساحة الشعر الحداثي.
  - سعيد عقل، ومجلة شعر. ويوسف الخال، وخليل حاوي.

مثال عن الاستعمال السياقي الحداثي:

إنّ (التشكيل) كلمة ((تبدأ من توظيف اللغة وتمتد إلى بناء القصيدة من حيث هي كلّ متكامل. والتشكيل وحده هو الفارق بين مفردات اللغة وتراكيبها في المحادثة اليومية وما هي عليه في القصيدة، حيث تغدو عنصراً فاعلاً في سياق، وكائنات حية في نسقٍ تتبادل وإياه الحيوية والتوثب والخصوصية)).

ومثالٌ على ذلك قصيدة (الحزن) لصلاح عبد الصبور، إذ يُحدث في مطلعها صدمة لغوية متعمّدة في ذائقة القارئ المديني الذي لم يعتد نوع لغةٍ وتراكيب صادمة متولدة عضوياً في سياق تشكيل لغة القصيدة.

وهنا مشهدٌ يقدّم صورةً لغويةً لحياةٍ مدينيّةٍ في تفاهتها، فيها أحزانٌ تخصّ إنساناً قلقاً وجودياً بامتياز، يظلّ هارباً منها في وحدته، مسترجعاً رومانسيّةً ريفيةً مفقودة، ويعلو القصيدة الحزن ويهيمن عليها، فيقول في المشهد الثاني:

[وأتى المساء

في غرفتي دَلفَ المساء

والحزنُ يولـَدُ في المساء لأنّهُ حزنٌ ضرير

حزنٌ طويلٌ كالطريق من الجحيم إلى الجحيم

حزنٌ صموتٌ

والصمتُ لا يعني الرضاءَ بأنّ أمنيةً تموت

وبأنَّ أياماً تموت

وبأن مِرْفـَقـَنا وَهَنْ

وبأنَّ ريحاً من عَفـَنْ

مسّ الحياة، فأصبحتْ وجميع ما فيها مقيت] من ديوان: الناس في بلادي ، ص٣٧.

- تتجسد هنا خصوصية الحزن المديني من خلال التشبيهات، فالحزن ضرير، وهو حزنٌ مرتبطٌ بالعادات والتقاليد.
- اللغة مألوفة والحزن كذلك، ولكن الحزن في سياق النصّ ليس مألوفاً بل صادمٌ يجسّد خصوصية الشاعر في رغبةٍ في إصلاح العالم، كالشاعر الرومانسي الإنكليزي شيللي.

انتهت المحاضرة